

الشعوذة (١٠)

تأليف لوسى مير

عرض : على محمد المكاوى

لاتزال العلوم الاجتماعية تعاني من الاختلاف حول مدلول المصطلحات الفنية التي تستخدمها مما لايساعد على وجود الوحدة الفكرية التي ينطلق منها كل المتخصصين . بيد انه لوساد الاتفاق على هذه المصطلحات لانقاذ البحث العلمى نفسه من الفرق في متاهات المفاهيم وانطلق فيما بعدها ضروب بناء الهيكل العلمى ذاته وتشبيده على ارسى ما تكون الاسس .

واذا كان هذا الموقف يصدق على العلوم الاجتماعية بصفة عامة فانه اكثر صدقا على علم الفولكلور الوليد ، ولاسيما في مجال من أدق واعمق موضوعاته وهو مجال « المعتقدات الشعبية » ، حيث لم تزل مصطلحاتها بعد القدر الكافى من الاهتمام والتحديد العلمى الدقيق . ولرحدث ذلك فانه يكون من جانب بعض المتخصصين وليس جميعهم . غير ان تقدم العلم وازدهاره رهين بتحقيق هذه المرحلة من النضج الفكرى الذى يتجلى ابرز صوره فى دقة المفاهيم والاتفاق على مدلولاتها .

وازاء هذه المشكلات ظهرت كتب علماء الأنثروبولوجيا ومنهم لوسى مير Lucky Mair التى تعرض لكتابتها المعنون بـ : « الشعوذة » Witchcraft . ويقع الكتاب فى مائتى وست وخمسين صفحة تضم أحد عشر فصلا تتناول بالتفصيل الشعوذة والمشعوذين من حيث دعاوى وجودهم ، والوقاية من شرورهم ، والشك والاتهام ، والشعوذة وانشطار البنية ، والتعامل معهم ، الوهم والحقيقة فى مجال محاكمات هؤلاء المشعوذين . وأخيرا يعرض الكتاب عرضا وافيا لنظريات الشعوذة ، ثم ينتهى بملاحظات وببليوجرافيا للكتب والمراجع المتصلة بالموضوع مرتبة أبجديا حسب المؤلفين .

وتؤكد « لوسى مير » فى بداية مؤلفها على انتشار الاعتقاد فى معظم أنحاء العالم بأن البشر يستطيعون انزال الأذى وإيقاع الضرر بزملائهم عن طريق تسخير بعض القوى التى لا يمتلكها ولا يقوى على تسخيرها الشخص

* Lucy Mair, Witchcraft, London, Weidenfeld and Nicolson, 1973.

العداى . وهى قوى تعمل فى الخفاء بحيث يصعب اكتشافها . وهؤلاء البشر هم ما نسميهم « بالشعوذين » . وفى هذا الصدد يهتم الانثروبولوجيون بالأشياء والافعال التى يأتونها المشعوذون، فى حين يهتم علماء النفس بالأفكار التى تنور حول نوع المشعوذين الذين يأتون الشر المشؤوم .

والدليل على ذلك اننا نقبل تفسيرات ونصائح الطبيب حول المرض العضال الذى ألم بنا، وفى نفس الوقت الذى نقبل فيه ما يخبرنا به العرفان من أسباب هذا المرض كخضب روح أحد الأسلاف علينا، أو كراهية المشعوذ لنا وبالتالي فهو وراء الكواليس يلعب دوره فى اصابتنا بالمرض .

وتطرح المؤلفة تساؤلا فى غاية الأهمية مفادة هل يمكن التخلّى ببساطة من الاعتقاد فى الشعوذة ؟ وتنجلي الاجابة عليه فى ضوء المقارنة التى ساققتها بين نمطين من المجتمعات ، أولهما هو المجتمع التكنولوجى المعقد الذى نال أعضاؤه قسطا من التعليم ، فاذا أصابهم المرض سارعوا الى انطبيب وليس الى الجار لينهالوا عليه ضريبا بالأيدي وركلا بالأقدام وليسحب نفوذه الشرير عليهم . وثانيهما هو المجتمع البسيط ذو المعرفة الطبية الضحلة حيث يمثل بؤرة ترتع فيها معتقدات الشعوذة ، وبالتالي تصبح سمة رئيسية تسم المجتمعات صغيرة الحجم والتكوين والعلاقات الأولية . ومن ثم نأن تطور ونمو الوسائل الفنية العلمية السريع ... بما فيها الوسائل الطبية - هو الذى يساعد على انحسار مدى الاعتقاد فى الشعوذة .

والملاحظ أن مجال الاعتقاد فى الشعوذة يتمثل فى الحالات الخلفية ولحظوظ العثرة كالمرض المزمن ، وعمق المرآة أو الماشية . ودمار المحصول وبقاره ، فى حين يفزر عند الجيران . وحتى بعض الأحداث التى لا يمكن تفسيرها كالتسقوط من على السلم ، ويرد الاعتقاد فى هذه النوازل الى كائنات شخصية personalized beings تنزل غضبها بالإنسان وتعاقبه على ما قدمت يداه . ولذلك ينظر الناس فى افريقيا - مرتع هذه المعتقدات - الى المريض نظرة سخرية واستهجان لأن المرض عقاب رادع حل به جزاء رفاقا على ما ارتكب من الأثم والفواحش .

وتعزى هذه النوازل مباشرة الى غضب الأسلاف ، أو الأرواح الأخرى التى تتصف بالخبث وممادة الحياة (عند المانوس Manus الذين درسهم برزشين Fortune) ، كما تمزى ايضا الى الإله المصادى anti-god عند شعب لوجبارا Lugbara . أما اتباع البوذية فاتهم ينسبوننا الى الخطايا التى ارتكبوها فى الأيام الخوالى . فى حين يعزو الصينيون سوء الحظ الى

عوامل عديدة لانتقى فيها الشعوذة أية قيمة تذكر، بينما اليهود والمسيحيون يردونها الى الاله العادل الذى يختبر بها درجة ايمانهم وقوة عقيدتهم .

ولا يغيب عن « مير » أن تحدد الطريقة المنهجية لدراسة الشعوذة وهى ان يعايش الباحث مجتمع بحثه فى ظروفه العادية وفى جوانب حياته فى ضوء الملاحظة بالمشاركة . وتستشهد بايفانز برتشارد Evans Pritchard الذى درس هذا الموضوع عند الزاندى بالسودان . وتوصل الى ان الشعوذة مادة موروثة كامنة فى داخل اجساد بعض الناس ، ويعتقدون بأنها قوة لابذاء الشر بدون اللجوء الى وسائل مادية . ولا يمكن التحقق من وجودها عند شخص ما الا بعد وفاته وتشريع جثته .

غير أن أهم اسهامات « مير » فى هذا الصدد هو التمييز بين الشعوذة وبين السحر الضار Sorcery . وهنا تكمن الصعوبة لكونهما يشتركان فى صفة واحدة وهى « فعل الشر » . ومع ذلك فتميز السحر الضار باستخدام ممارسيه موضوعات واثنيات مادية أما المشعوذ فهو لا يستخدم شيئا من ذلك ، وانما يوقع الأذى بشخص ما بمجرد الميل نحوه . ثم ان المشعوذ قد يرتبط بالشيطان وبذئ نفسه ليكون خادما مخلصا له ، أما ساحر الضرر فانه — وان تلقى من الشيطان أسس فنه — يمارس السحر الضار بحرية تامة وبلا تبعية . وأخيرا فان ممارسة الشعوذة تقتصر فى الغالب على النساء ، أما السحر الضار فانه يلتصق بالرجال .

ومن مظاهر التمييز الحديثة فى السحر الضار ان ممارسيه بدأوا يشتركون الصودا الكاوية Caustic Soda — فى تسوانا Tswana — لاستخدامها ضمن الأدوية التى يعالجون بها لتزداد فاعليتها مع غيرها من الأدوية التى يدسونها فى طعام الضحية . كما أن هؤلاء الأفاقة قد أوجدوا أضرحة جديدة للأرواح — تحت وطأة التفيرات الاجتماعية السريعة — لتحمى من يوقرها من أذى الشعوذة . ولذلك يصفها فوريتس Fortes بأنها : « أكثر الأعراض الدرامية للاحساس المتزايد بانفقاد الأمان الاجتماعى والشخصى » .

وتدل المظاهر الأخرى على قرب انحسار الشعوذة فى المدن ، ذلك لأن طريقة الحياة الحضرية تبطل الطرق التقليدية وتعاقب من يلوذ بها على أساس أنها غير قانونية . أما الريف فلا تزال الشعوذة ترثع فيه . ومن ذلك مثلا أن المرض العضال الذى يلم بالقروى يرده اما الى : ١ — سيرة زملاء العمل . ٢ — او غضب أسلاف أبيه (أجداده) ، ٣ — أو نقمتهم

عليه لعدم قيامه بالطقوس الجنائزية لأعضاء شبكته القرابية ، { — أو نقمة
أمه عليه لتقريطه في التزاماته حيال أقرانها .

ويستتبع ذلك سعى الأهل حديثا لاسترضاء هؤلاء جميعا . ولذلك
تكون بصدد ثلاثة أنماط من أنشطة الوقاية من الشعوذة وهى .

١ — عبادة الأرواح ، أو الطلاسم التى يعتقد بأنها تصف الداء وتحدد
الدواء .

٢ — أنشطة الكشف عن المشعوذ ومواجهته بالمتنبئين المتجولين .

٣ — طقوس الكنائس الجديدة التى تحللت من القواعد الصارمة التى
وضعتها البعثات التبشيرية المسيحية .

وتتمثل خلاصة هذه الأنماط فى الفناء الضوء على المشعوذ لمعرفة
الوقاية البريء من السوءات ، وقضم ظهر من يتهم مستقبلا بممارسة
الشعوذة . ولكن الظريف أن وسائل الكشف عن المشعوذ متعددة ومنها :

— ممارسة طقس الأورديل ordeal (الامتحان الالهي أو البشعة) .

— تغميد الناس فى مياه النهر وتمييز المشعوذ من بينهم على أساس أن الماء
لا يعلق بشمره وقد فعل سيمون كيمبانجو S. Kimbange بنى الكنفوا
هذه الحيلة .

— نشاط أتباع مذهب الأتinja الذين يدعوهم الرؤساء لزيارتهم
وتمييز المشعوذين من بين مجموع الراقصين رقصة تنجا .

— ذبح دجاجة أمام المشكوك فى ممارسته للشعوذة ، وتحدد اجابته ،
من خلال الطريقة التى تخربها الدجاجة صريعة ، فيستطيع العراف
تمييز المشعوذة ويواجهها بالاعتراف والالتئام حول الأشياء التى تستخدم
فى السحر الضار وبذلك تم الكشف عن أربعائة وثلاث وثمانين مشعوذة
بمساعدة أتباع مذهب آتينجا .

وتنتظم نظريات الشعوذة الرئيسية فى ثلاث فئات هى :

(أ) فئة تبحث فى السبب والانتشار ويسأل أصحابها عن سبب وجود
هذه المعتقدات وسبب انتشارها على نطاق واسع ، وكذلك سبب
التشبه بها .

(ب) فئة النظريات الوظيفية ويركز أصحابها على وظيفة هذه المعتقدات

في المجتمعات التي توجد فيها ، واسهامها في تدعيم العلاقات الاجتماعية المنظمة .

(ج) فئة ثالثة يسعى انتصارها لاقامة ارتباطات بين توجيه الاتهامات بممارسة الشعوذة وبين بنية المجتمعات المختلفة .

غير أن أبرز هذه الفئات جميعا هي النظريات الوظيفية التي تنقسم الى نظريات وظيفية واسعة النطاق تبرز دور المعتقدات في الوجود الاجتماعي والوفاء به بطريقة أو بأخرى . أما النوع الثاني فهو نظريات وظيفية ضيقة النطاق وأقل طموحا وهي - مهما كانت نقائصها - تقدم اسهاما ما للغاية المرغوبة اجتماعيا . وتذهب هذه النظريات الى ان معتقدات الشعوذة تيسر تكيف الأفراد مع المجتمع الذي يعيشون فيه . كما انها تمكن الناس من أن يجدوا متنفسا لقلقهم ومتاعبهم النفسية ، ويجدوا اسما لما يعانون منه . وهي تقدم بديلا يحل محل العدوان والقلق . فالناس الذين يربطون لنتشاجر مع آبائهم أو ذوى الأرحام - وتحول قواعد السلوك الاجتماعي دون الجهر بهذا العراك أو البدء به - يلجأون الى انزال جام غضبهم وسخطهم على شخص تخيلي تبدو مشاعر الكراهية له والخوف منه واضحة صريحة . وبالتالي يتيح الاعتقاد في الشعوذة فرصة التنفيس عن المشاعر العدوانية ضد أعضاء الجماعة القربانية في صورة أشخاص آخرين ليسوا من هذه الجماعة ولا تقيد سلوكهم العدواني ازاءهم أية قيود اجتماعية .

وبالإضافة الى هذه الوظائف تضطلع معتقدات الشعوذة بوظيفة التعرف على الصراع الكامن في هذه التوترات ومحاولة حلها بالاجراءات القضائية ونمط الفظاظة rudness الموجهة المسموح به في علاقات المزاح joking والاتهامات الموجهة للشعوذة . ولكن صور العداء بين أعضاء الجماعة الواحدة ذات الكيان الواحد لا تنطفئ على السطح وبالتالي فلا ينيسر حلها الا باتهامات الشعوذة . كما ان الاعتقاد في الشعوذة يؤكد ويدعم التضامن عن طريق « التحديد الدرامي لما هو سيء » .

ولعل أهم الوظائف قاطبة الوظيفية الاخلاقية حيث يدفع الاعتقاد في الشعوذة الى الأخذ بالرمز المقبول للسلوك ، والاحترام والتوقير لكل ما هو معتدل ، ونبذ ما تؤتبه المشعوذات ، ومن ثم ينعكس كل ذلك في تدعيم النظام الاجتماعي . علاوة على ذلك ، يقدم الاعتقاد دليلا هاديا للتصرف

ازاء الأزمات التي تترى على كاهل المرء - حتى وان كانت راجعة الى سوء سلوكه أو سوء تعامله - نهى تمككه وتمكن سائر الناس من التصور بأنهم يخطون بثقة خطوات راسخة نحو الخلاص من هذه الأزمات وتلك الكوارث .

ويمثل توجيه الاتهامات ومسارها الفئة الثانية من الاتجاهات النظرية في دراسة الاعتقاد في الشعوذة . فيغلب القول بان هذه الاتهامات ليست عشوائية اذا علمنا أن ضحايا عثرات الحظوظ وسوءاتها يلقون بالتهمة على اعدائهم مباشرة . وقد أولى الأنثروبولوجيون مزيد اهتمامهم لنوعية الأشخاص الذين تلصق بهم تهمة الشعوذة في بعض العلاقات الاجتماعية الخاصة . فقد أجرى نادل Nadel دراسة على أهل النوبة ولاحظ أن توجيه الاتهام يكون ناحية اعداء أبناء الأخت في ظل النظام الأمومي . وقد قام جو نرى لنيهاردت Lienhardt أيضا بدراسة على الدنكا بالسودان .

غير أن هذه الاتهامات تسود مجتمعات صغيرة الحجم وتوصف بأنها قبائل بلا حكام . وتمثل تلك الاتهامات لونا من المنافسة السياسية للفوزا بمكتب رئيس القبيلة . ومن هنا يظهر نمطان من أنماط التفسير النظري يبرز أولهما خصائص الاتهام ويفسرهما بالتوترات في العلاقات الاجتماعية الخاصة ويضفي ثانيهما قيمة اجتماعية على هذه التوترات لأنها (أي الاتهامات) تخفف من حدتها . ويسمى هذا النمط الوظيفي بالنظرية المسككة (أو اللطفة) Cathartic Theory .

ولكن الطريف أن هذه الاتهامات تصوب شطر النسوة من بحنة رافع الاتهام واللائى تزوجن برجال من البحنة المنافسة . ويأتالي فإن القضية المعبرة عن هذه الحالة تتلخص في « أن التوترات بين الرجال يتم التعامل معها وتناولها كما لو كانت توترات فقط بين النسوة » .

وعلى العموم تبقى الفئة الثالثة من الاتجاهات النظرية في دراسة الشعوذة ، وهي فئة تربط بين الشعوذة وبين بنية المجتمع حيث تعمل معتقدات الشعوذة على العصف بالأجزاء النخرة من البناء الاجتماعي وتلقى الضوء على اللبنيات الصلدة لكي تستخدم في اعداد وتطوير الأجزاء الجديدة .

وقصارى القول أننا - بعد هذا العرض - في مسيس الحاجة الى دراسة تراثنا الشعبي ولاسيما المعتقدات الشعبية التي تضرب بجذورها في كافة جوانب حياتنا الاجتماعية والثقافية . وهي حاجة ملحة تفرض نفسها فرضا من أجل فهم ديناميات التغير الاجتماعي في بلادنا وفهم شخصيتنا المصرية حق الفهم . ومن ثم فنحن مطالبون باجراء مثل هذه الدراسات لتراثنا الشعبي للتعرف على أبرز شخصاته واتجاهات تطوره .